# الخطيب البغدادي

## مؤرخ بغداد ومحدثها

تأليف

يوسف العش

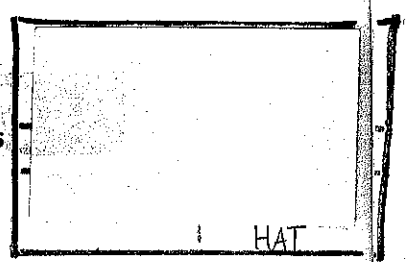


قدم له الأستاذ الكبير

أحمد أمين بك

المكتبة العربية في دمشق
لاصحابها عبيد اخوان

مطبعة الترقي بدمشق
١/٤/١٣٦٤ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٥/٣/١٩٤٥ م

إذا ارتاب مرتابٌ في وحدة العرب ،
فما أكثر الشواهد التي تزيل الريب .
وهذا الكتاب واحدٌ من هذه الشواهد
وضعه مؤلفٌ من شباب بلاد الشام
وقدّم له أستاذ كبير من رجالات مصر
وتناول البحثُ فيه علماً من أعلام العراق
فما أحراه بأن يهدى

## إلى الوحدة العربية

إنه بهذا الإهداء لفخور

ISLÂM
Araştırmaları
Enstitüsü
A-183
Ocak 1964

# المقدمة

للأستاذ الكبير أحمد أمين بك

عرفتُ الأستاذ يوسف العش شاباً ممتلئاً نشاطاً ، مخلصاً للعلم ، جاداً في البحث وراءَ الحق ، لم تمنعه ثقافته الغربية أن يصرف أطول زمنه نابشاً في الكتب الشرقية ، مسلطاً ضوءَ المنهج الذي اكتسبه من الغرب على التراث العظيم الذي خلفه لنا الشرق .

ولما التقيت به في مهرجان أبي العلاء المعري في دمشق أطلعني على مسودةٍ لكتابٍ وضعه في مؤرخ بغداد « أبي بكر الخطيب » — ومع أن وقتنا كان مزدحماً لا نفرغ فيه لأنفسنا إلا حين عودتنا لننام في منتصف الليل اجتهدتُ أن أختلس وقتاً للاطلاع على هذا الكتاب ، وتصفحه عامة ، وقراءة فصول بأكملها خاصة .

أعجبني فيما قرأتُ دقة البحث ، وصبر المؤلف على الدرس ، ورجوعه إلى مظانّ كثيرة ، بين مخطوطة ومطبوعة ، والاستفادة

منها ، والتأليف بين أشتاتها ، ليخرج لنا صورةً واضحةً للخطيب البغدادي في حياته وأخلاقه وثقافته ونزعاته ومقدار الثقة به ، وما أسداه إلى العلم من خدمات ، وسرّ عظمته الخ ..

والكتاب قيم من نواح شتى ، فهو يطلعنا على مؤرخ عظيم كان صورةً صادقةً للمؤرخين والمحدّثين في عصور الإسلام الأولى — وهو يعرضه عرضاً عصرياً جذاباً ، ويستخدم المادة الأولى القديمة فيزينها بزواء جديد أخاذ — وهو يقدم لنا مثلاً لتراثنا القديم كيف نستغله في الإعجاب بقدمائنا ، والاستحثاث للسير على منهجهم في حب العلم والصبر عليه والتبتل فيه .

وهو فوق ذلك طليعة تدل على ما بعدها من أن المؤلف إذا صدر منه هذا الكتاب وهو في ربيع حياته ، فسيكون منه مؤلف قدير ناضج يغني — هو وأمثاله — المكتبة العربية بخير التآليف وأحسن الإنتاج . وفقه الله للخير ؟

احمد امين

# الاستهلال

مدّ الله في عمرك ، وحباك بالعلم بعد المعرفة ، وبالحكمة بعد العقل ، وبالنشاط بعد القوة .

ألم تر ما للأدباء من الشهرة في حياتهم وبعد وفاتهم ، لا ينفك الناس عن التنويه بشأنهم ، والعناية بأقوالهم ، والتتبع لآثارهم ، طلباً للمتعة ، وحرصاً على الفكاهة ، وسعياً للاكتساب السهل للمعرفة الظريفة .

ألم تشهد ما لأدباء العرب من المكان الجليل في نشأة الفكر منذ عصر النهضة الحديثة : أقبل العلماء المعاصرون على البحث عنهم ، وتتابعت الكتب في ذكر أثرهم ، ووصف أخلاقهم ، وبسط حياتهم ، حتى خيل لبعض المتعلمين أن الفكر العربي إنما هو أثر من آثار الشعراء والكتاب ، أمدوه بما أبدعه ، وقواه ، وأكمله ، وأننا ، إن تعدينا حلقة أدباء العربية ، ألفينا كتباً صفراً ، شحنت بما يرهق العقل ، ويثقل السمع ، ويغشى البصر : طال عليها العهد حتى هرمت .

لعمرك إنهم أخطأوا الفهم . فالأدب العربي مدين للأدباء ، كما هو مدين لغيرهم ، أما الفكر العربي فهو وليد العلم قبل الأدب ؛ ولئن كان للبحث في الأدب طرافة ترهف الحس ، وتغذي الخيال ، وتثير العاطفة ، فلعلماء العرب والإسلام شأن يسمو بالنفس ، ويعلو بالفكر ، ويوحي القوة ؛ وما هو إلا أن ينفض غبار الكتب الصفر ، ويرفع منها تكرار الروايات وتداخل الآراء ، حتى يتجلى لابن العصر جميل أثرها ، ويسفر للنظر حسن معناها .

هل ترى أن يطغى حظ الأدباء أكثر ، وأن يمنى غيرهم بزيادة الهجران ؟ ألست متشوقاً الى النصيب الأوفر من المعرفة والقسط الأكبر من رياضة العقل ، تود لو اطلعت على آفاق حجبت عنك ، وتوارت دونك . إذا بلغت بك الهمة هذا ، فتعال معي نطوف بعالم نستعرض فيه أكثر ما عمل المسلمون له ألا فاسمع :

لم يعن المسلمون بشيء عنايتهم بجمع الحديث النبوي وضبطه . ولئن كان لعملهم هذا غاية دينية خالصة ، فقد تأثرت علومهم بالحديث ، بل إن كثيراً منها وضع لإسعاف الحديث وإتقان البحث فيه . ثم نشأت طائفة منهم استقلت بالحديث وبالعلوم المسعفة له ، فعظم جدها ، وكثر سعيها ؛ وبلغ من أمرها أن من أهلها من كان يرحل من العراق



إلى مصر تتبعاً لحديث واحد أو تصحيحاً له[1] . وهي في كل ذلك مؤمنة أنها تخدم الإسلام ، بل تحمل رايته . لم تقنع بأن تعد صاحبة علم عظيم من علوم الإسلام ، بل طمحت إلى أن يصبح المرجع في شؤون الدين إليها ، فتكون حامية الإسلام وبطلة العقيدة وسيدة الفتوى . اختطت لنفسها سبيلاً قصدت أن يكون خالصاً من التمويه ، بعيداً عن الزيغ ، واضح المرمى . أخذت على نفسها بأن يحيا أهلها حياة دينية خلقية نقية ، فيكونوا حقيقين بالاحترام ، جديرين بالثقة ، حريين بالرئاسة . لم تقصد في ذلك الدنيا ، بل كان هدفها يوم الله الآخر ، حتى إذا زهدوا في الدنيا لم يتصوفوا ويتقشفوا ، بل جمعوا بين الكسب للخيرات ، والازدراء للشهوات . ونظروا إلى الناس نظرة الناقد الفاحص ، فهاجموا فسادهم ، وأثقلوا الكيل عليهم . ظنوا الكمال في الدين واجباً ، والمتساهل فيه ظالماً ، فكثر نقدهم ، وتضاعفت حملاتهم ، حتى عدهم بعض الناس خيولاً جامحة لا تدري أين تسير ، وأيان تستقر .

أرأيت أنهم قمينون بالانتباه ، جديرون بالعناية . ألا فتتبع صفحات هذا الكتاب تجد صوراً منهم تزيد في معرفتك بشأنهم ،

(١) انظر أخبار ذلك في كتاب الرحلة في طلب الحديث ظاهرية مجموع ٧٤ ، ١٥٠/١ — ١٥٥/١

وتطلعك على شيء من رأيهم وطرف من سعيهم ، فيكون لك ساعات اتصال بأناس يختلفون عمن عرفت اختلافاً بيناً .

لكن أترُاك تؤثر البحث المجمل المنطقي الذي يعرض صوراً عامة مطلقة موحدة ، أم تفضل أن تتبع حياة كاملة مفصلة ، كأنك تعيش معها ، وتمر أمامك . ألست تميل إلى الصور الحية الصادقة ، تجد فيها رمزاً واضحاً إلى غيرها من المشاهد ، وتقيس بها سواها من الأشكال ، أما إنك تجد في البحث عن عالم ما مثالاً قريباً لغيره ؛ وخير لك أن تشعر بشعور واحد من جماعة ، وتعيش معه ، وتتحدث إليه ، من أن تصادف جماعة ، فلا تدري أمرهم إلا بالجمع ، ورأيهم إلا بالتلخيص لا سيما إذا اعتدت على استثارة عاطفتك بجميل الأخبار ، ومحاسن الأقوال ، وطرائف الآراء .

لن يبعد لك سبيل الاتصال بالجماعة ، فالرجل الذي ستقرأ سيرته ليس نادرة لا مثال لها ، أو عظيماً لانظير له ، أو عبقرياً اختص بمزايا لا تتم لغيره . إنما هو واحد من عدة ، ومثل من أمثال ، وعالم من علماء . استن بهدي من سبقه ، وسار على خطى من قبله ، لا يدعي العظمة ، ولا يتصف بالعُنْجُهية . إذا عرفته عرفت طائفته ، وكنت على جلية من أمرها .

ستشهد في هذا السفر صورة موجزة عن عصر متوسط من عصور



الإسلام ، وترى فيه حياة محدث قد حفل بالعلم ، وانكب عليه ، وأخلص له ، فسعد بسببه ، وعرف به ، وقدر لأجله ، وستقرأ صورته بطبعه السمح ، ونفسه الطيبة ، وقدرته على الإتقان ، وتنتقل من ذلك الى وصفه في ثقافته وعلمه ، وهما يتكونان ثم يتوسعان ثم ينتجان ويبدو لك بعد ذلك أدب براق ، وشعر لطيف ، فتتشوق الى معرفة رأي الرجل ، فتراه متحمساً يعتقد وجوب الأخذ بشيء من التفكير والعقل ، والوقوف عند نصوص الشرع . حتى إذا شاهد من لا يوافقه على رأيه ، لم يخش من الكيل له بما يراه يستحقه ، يخاصمه مستتراً بأقوال غيره فيه : يورد أشدها وأقواها دون أن يبدي رأيه فيه ، أو يرفع صوته في استنكار أعماله . ولكن خصومه لا يقفون حيارى ، بل يتناولونه بألسنتهم الحداد ، ويتهمونه بما يرونه مستحقاً له . ويضطرب رأيك فيه بعد الذي تسمع في نقده ، وتود لو سمعت قول المنصفين ليتبين لك الحق ، فترى أئمة المؤرخين معجبين به ، مجلين له ، معتقدين كماله وإتقانه . وتستخلص من ذلك صورة تختم بها رأيك فيه ، فتعده من خيار الناس الذين يكونون مجد الأمم ، ويخدمون تراث العلم .

لن يحاول المؤلف الضغط على شعورك وكبت ميولك ، ليدعك تمسك عليك نفسك آخذاً ببعد العالم عن التأثر بالعاطفة ، يذرك غير مبالٍ بمن تقرأ سيرته . بل سيحاول أن يظهر لك الجمال حيث